د. هشام مداقين - جامعة المسيلة - الجزائر

الرواية الجزائرية وإشكالية المنهج
نحو آفاق أخرى للقراءة النقدية

تحاول هذه المداخلة معالجة الوجه الإشكالي في المناهج النقدية المعاصرة سواء المناهج البنيوية المشغولة بالنص أو المناهج التي تأخذ في الحسبان ظروف النص وسياقه الاجتماعي والتاريخي والنفسي... وذلك بالتركيز على المثالب التي وقعت فيها الرؤية المنهجية، والتي لم تعد تخفى على النقاد والدارسين خاصة في تيار ما بعد الحداثة الذي اتجه إلى القراءة والتأويل.

وبالتالي فإن هذه المداخلة لا تنطلق من منطق رفض هذه المناهج التي مازالت تطبع المشهد النقدي العربي والجزائري، كما لا تنكر الإسهامات النقدية الرائدة التي كشفت مناح أخرى للإبداع لم تكن ليلتفت لها في المقاربات التقليدية، وإنما ترمي هذه الصفحات إلى تعميق الوعي لدى القارئ والناقد على حد سواء بما تنطوي عليه هذه المناهج سواء كانت نصية أو سياقية من محدودية أدواتها وآلياتها في الإحاطة بالعمل الأدبي مما يستدعي تصورات أخرى تستفيد من إمكانيات هذه المناهج في خلق رؤى أكثر شمولا ورحابة تسبر المعنى من أكثر من طريق.

وقد جاءت المداخلة تحت العناصر التالية:

- إشكالية المناهج النقدية المعاصرة : (المناهج السياقية) النقد خارج النص، المنهج البنيوي وعبودية النص.
- قراءة في بعض التطبيقات النقدية على الرواية الجزائرية وذلك في كتاب: أبحاث في الرواية العربية لصالح مفقودة الذي يضم العديد من التطبيقات المنهجية على نصوص روائية جزائرية وفق عدة مناهج.

- من اجل رؤية تأويلية شاملة تتجاوز المناهج وتفتح آفاقا أرحب للقراءة النقدية.

المناهج السياقية (النقد خارج النص)

ينطلق النقد في مقاربة النص الأدبي من عدة مداخل واتجاهات تشكل الخلفية المعرفية التي تجمع بين الناقد وظروف نشأة النص وتشكله وفق رؤية خاصة تخضع النص لزمنيته ودوافع إبداعه، خارج حدود النص اللغوية ومكوناته التركيبية، اعتقادا منها أن النص تتحكم فيه ظروف أخرى تكون لها لأولية والأسبقية في تفسيره ونقده دونما اعتبار لكونه لغة مفارقة ومتعالية على ملابسات تكونها، وهذا الاتجاه يسمى عادة بالمنهج السياقي في مقابل النسقي النصي، أو المناهج الخارجية في مقابل الداخلية، أو المناهج التاريخية باعتبار ارتباطها بزمنية النص ونشأته، وكذلك تسمى بالمناهج الاجتماعية على أساس وظيفة الإبداع ونظريته المرتبطة بالانعكاس والتعبير عن قضايا الإنسان والمجتمع، وتحت المناهج الاجتماعية يدخل النفسي والتاريخي والانطباعي من باب إطلاق الجزء على الكل، ويقصد بالسياقي: السياق العام الخارجي للنص وليس السياق النصي الداخلي، والسياق العام يشمل الجانب التاريخي أو السياق الزمني لنشأة وتطور النص و مبدعه وملابساتهما، والسياق الذاتي المعبر عن التذوق الشخصي في منحى تأثري انطباعي، والسياق الاجتماعي الذي يرتد إلى مدى ارتباط النص بظروف مجتمعه في حقبة محددة، وكذلك السياق النفسي المرتبط بشخصية المبدع وأثرها في الإبداع.

وبالتالي نحن أمام سياقات واتجاهات متعددة ومختلفة يتداخل فيها الإنساني بالأيديولوجي والتاريخي بالنفسي، يجمع بينها الاهتمام المنصب حول النص وظروفه، وتفرقها المواقف من اللغة والوجود والفن خاصة بعدما أصبحت النظرية النقدية منفتحة على العلوم الإنسانية كعلم الاجتماع، وعلم النفس، والفلسفة.

ولا شك أن هذه المناهج كانت حاضرة منذ النهضة الأدبية ثم عصر الرواد، فقد كان طه حسين تاريخيا يستمد مقولات تين وسانت بيف ولانسون خاصة في كتابه (تجديد ذكرى أبي العلاء)، كما استثمر العقاد الاتجاه النفسي في قراءته لابن الرومي وأبو نواس وكذلك الحال عند عز الدين اسماعيل، أما محمد مندور فقد كان حريصا على الذوق والانطباعية في ممارسته النقدية، بينما كان محمود أمين العالم وحسين مروة وعبد العظيم أنيس يؤسسون للمنهج الأيديولوجي والماركسي اليساري خاصة في كتاب (في الثقافة المصرية).

وربما هذه المرحلة التي مثلت النقد العربي أو النقد الجزائري تعبر عن غياب نظرية نقدية عربية واضحة المعالم ومحددة موضوعيا ومنهجيا واصطلاحيا يمكن التعويل عليها في

دراسة الأدب ونقده، مما عزز هذا التخبط المنهجي الذي عبرت عنه مرحلة الرواد خاصة أو مرحلة التعبير المتأثرة بالرومنسية ذات النزعات الفردية والعاطفية(01).

البنيوية وعبودية النص

لقد كانت البنيوية ملء العالم وصداه، إذ كانت ظاهرة كونية عابرة للحدود والقارات، وتحمل عهدا جديدا أو بشارة العلوم الإنسانية التي آن لها أن تنازع العلوم الطبيعية، بمعايير أكثر عقلانية لا تقل دقة عن العلوم الرياضية، ومثّل هذا العهد قطيعة كلية مع النزعة التاريخية والوجودية(02) التي سادت العالم بعد الحرب العالمية الثانية، وكان الفتح البنيوي بمثابة الخلاص للإنسانية من الحيرة والقلق الحذر الذي تفننت الوجودية في تصويره "هذا الجانب القدري من البنيوية يجتذب إليه العقول التي تستريح إلى الأنظمة التي تحتويها وتشعرها بالأمان داخل النسق، فتحميها من الوجود الخطر القلق الذي تتداعى فيه الأشياء بما يشعر الإنسان أنه وحيد في مواجهة العدم. هذا العدم نفسه، خاصة في دلالته الوجودية، هو ما تنفيه البنيوية. حين ترد المعنى إلى العالم، وتفهم العالم بوصفه أنساقا وراء أنساق من الأبنية الدالة، التي تنتظر الكشف عن مغزاها ووظائفها، فالعالم بنية كبرى دالة، لها وجودها الآني الذي يجاوز التاريخ المتعاقب ..."(03).

ولم تكن البنيوية نقيضا للوجودية وفلسفة التاريخ كتيارات فكرية سائدة ورائجة، وإنما كانت نقيضا للفكر الفلسفي ذاته الذي يجعل من الأنا والميتافيزيقا والإنسان موضوعا لها، وانقلابا كليا على الأيديولوجيا، أو كل تصور يجعل من الذات منطلقا لفكره، معلنة بذلك عن موت الإنسان وموت الفلسفة وموت التاريخ...، إيذانا بميلاد البنية، أو عصر البنيوية التي أضحت مفتاح كل العلوم ولسانها الذي يمكنها من تحقيق معرفة أقرب إلى اليقين بكل الموجودات بما في ذلك الإنسان باعتبار كل شيء بنية قائمة بذاتها ومستقلة عن كل ما سواها و "لفظ البنية يحمل في تضاعيفه تحقيق الحلم البشري الذي طالما حاول وضع اليد على الموضوع، من أجل احتباسه في شباك نظامه العقلي، وكأن البنية نفسها هي تلك الوحدة الجديدة، التي تضمن للعقل فهم الواقع والسيطرة عليه من جهة، وإشباع حنينه إلى النظام الأولي المفقود من جهة أخرى..." (04)، وتهدف البنيوية إلى رد كل شيء إلى نظام كامن ومكتف بذاته يوازي نظام العقل في شكل تعارض بين محسوس السطح الظاهري، ومعقول النظام الخفي، الذي هو أقرب إلى العلمية أو العقلانية البنيوية(05).

ويبدو أن هذه الطبيعة المنهجية المحكمة للبنيوية قد أغرت الكثير من النقاد العرب في محاولة تجريبها على النص العربي القديم والحديث في بحث دؤوب عن البنى والعناصر الكلية التي تعيد دراسة النصوص دراسة علمية ومنهجية تمكنها من السيطرة على الموضوع

والقبض على المعنى في إطار النسق و البنية أو الخصائص المشتركة بين النصوص التي ربما أصابت الناقد العربي بنشوة الانتصار وإمكانية السيطرة على حركية الإبداع، وهذا ما عبرت عنه الكثير من الدراسات البنيوية للشعر والنثر العربي على غرار ما سبق، نذكر ما أشادت به يمنى العيد بالبنيوية في كتابها (في معرفة النص)، وفدوى مالطي دوغلاس في (بناء النص التراثي)(06)، ومحمد الواسطي في (أسرار النص)، وما قامت به مجلة فصول المصرية في الترويج لهذا المنهج بداية الثمانينيات، ولكن هذا الاكتساح العميق للبنيوية لم يخف قلقا خفيا أو معلنا تنطوي عليه مشكلات هذه النظرية في مستوى الإجراء والنظر، وهذا ما عبر عنه أحد أقطابها وهو عبد السلام المسدي قائلا "إن عملية النقد البنيوي وما آلت إليه من بحث عن نظم العلاقات بين الدوال والرموز أضحت تجري في حلقة ضيقة لا تتعدى حدود الباحثين المختصين... إن عملية الإحصاء وما يجري مجراها من ضبط لرسوم بيانية وأشكال هندسية، غدت مجرد بحث تجريدي مقصود لذاته، دون أن يحقق النتائج المرجوة في الكشف عن أدبية النص، وإن لم ينكر فضلها في نحت لغة ثانية تفيد النقد وتسهم في ترويضه على المهارات التواصلية المختلفة..."(07).

- قراءة في التطبيقات المنهجية على الرواية الجزائرية (من خلال كتاب أبحاث في الرواية العربية لصالح مفقودة).

كتاب صالح مفقودة(08) هو جملة من الأبحاث التي قام بها صاحبها في فترات مختلفة على نصوص جزائرية وعربية وفق أدوات منهجية متعددة تنطق بها عناوين الدراسات التي قام بها الباحث وتضم مقدمة تاريخية حول نشأة الرواية الجزائرية تلها دراسة لأهم الروايات العربية التأسيسية ونعني بذلك كتاب المويلحي(حديث عيسى بن هشام) ورواية زينب لمحمد حسنين هيكل، تلها دراسة لروايتي الجزائري رشيد بوجدرة (الإنكار) و (ألف وعام من الحنين)، حيث عرض في الرواية الأولى للجانب النفسي والاجتماعي منها وأردف الثانية بقراءة لا تحمل إلا اسمها، كما عرض الباحث لروائيين جزائريين وهما أحلام مستغانمي ووسيني لعرج في روايتي ذاكرة الجسد وكتاب الأمير من حيث الانهزامية والاستسلام، ولم يتوان الباحث على معالجة روايات عربية أخرى ونقصد بها سيرة الرماد للروائية المغربية خديجة مروزي ورواية لمحمد جبريل الكاتب والروائي المصري التي خصها الباحث بدراستين إحداها غواية الاسكندر بين الأسطورة والعلم، والأخرى تحت عنوان التناص، بالإضافة إلى دراسة أخرى لمحمد جبريل حول بنية الخطاب الروائي في رواية زمان الوصل.

والملاحظ من خلال هذه الدراسات هو عدم التصريح بنوع المنهج المتبع في العناوين والاكتفاء بلفظ قراءة مقرونا باسم الرواية محل الدراسة، أو الاكتفاء بذكر الرواية وحدها كما في ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي، أما الباقي فقد توزع حسب الموضوعات منها: الجانب النفسي والاجتماعي، الانهزامية والاستسلام في رواية الأمير، الأسطورة والواقع.

أما العناوين التي تحمل صبغة منهجية فمثلتها آخر دراستين في الكتاب وهما:

- التناص في رواية الاسكندر لمحمد جبريل.
- بنية الخطاب الروائي في زمان الوصل لمحمد جبريل.

وعند الحديث عن المضمون فإن الباحث في دراساته للرواية أقرب إلى الرؤيا الكلاسيكية منه إلى علم السرد أو ما يقتضيه التحليل السردي، حيث لم يتجاوز في قراءته عناصر الرواية من شخصيات وزمان ومكان وملخص للرواية وكذلك لغة الرواية دون الرجوع إلى أي منطق سردي حديث يمكن أن يعزز رؤية الباحث ويظهر ذلك جليا في أول دراستين ونقصد بذلك الجانب النفسي والاجتماعي في رواية الإنكار لرشيد بوجدرة، حيث قدم الكاتب للرواية بالحديث عن الأحداث ثم انصرف إلى الشخصيات، قبل أن يطرق الجانب النفسي تحت اسم الجانب الفرويدي(09)، الذي ربطه برغبة البطل في زوجة أبيه التي جعلها الكاتب بديلا موضوعيا للأم أو عقدة أوديب، ولكن المتأمل للرواية ربما لا يجد في رغبة البطل سوى رغبة جسدية ملحة لا تعززها أي دوافع نفسية خاصة وأن زوجة الأب في الصورة النمطية لا يمكن أن تحل مكان الأم بل تشكل مصدرا للقلق والاستبعاد، وجاء الجانب الاجتماعي تحت عنوان (الصراع الفكري و الحضاري) الذي يذكر فيه الكاتب الصفات الاجتماعية السلفية والشيوعية وكذلك مظاهر الحضارة الغربية ممثلة في شخصية (سيلين) دون تحليل، والأمر نفسه مع القراءة الثانية التي اتبع فيها نفس الخطوات رغم تعمقه في الجانب الاجتماعي من خلال التحليل الطبقي لشخصيات الرواية، لكن الدراسة الثالثة لكتاب الأمير تعد قراءة حرة بامتياز عبر عنها الاسترسال في متابعة أحداث الرواية وشخصياتها دون عنصرة أو تقسيم يذكر سوى ما جاء تحت الأمير والرعية وحياة البذخ، بأسئلة أقرب إلى التاريخ منها إلى الرواية، حيث يسموا المغزى الفني للرواية على التاريخ ليتصل بأسئلة الواقع وأفق القارئ.

لكن دراسة زمان الوصل لمحمد جبريل التي جاءت تحت عنوان (بنية الخطاب الروائي) قد تمثل الدراسة الوحيدة التي يمكن وصفها بالمنهجية حيث اعتمد فيها الباحث على منطلقات البنية السردية من: متواليات سردية، السارد، التركيب السردي، المبنى الحكائي، المتن الحكائي، الزمن السردي (الاسترجاع، الاستباق، الحذف)، المفارقة... وهو ما يعززه إحالاته إلى جرار جينيت و موريس أبو ناضر في الألسنية والنقد الأدبي، وقد جاءت

الدراسة أكثر عمقا وأغزر في التحليل من سابقاتها وهذا ما تفسرها الوسائل البنيوية التي استعان بها الكاتب وارتكز عليها في التحليل.

وإن كان الكتاب لصاحبه صالح مفقودة لا يحمل صبغة منهجية واضحة إلا أنه يفصح عن مهارة قرائية وحس نقدي لا يحتاج إلى الاتكاء على صرامة الأدوات المنهجية بقدر ما يمارس خبرة بالنصوص السردية، لكن هذه الخبرة لا تغني عن التزود بالرؤية المنهجية التي تساهم في تعميق المعرفة بالنص ومعالجته من جوانب متعددة.

من أجل رؤية تأويلية شاملة تتجاوز المناهج وتفتح آفاقا أرحب للقراءة النقدية

تعد المقاربة المنهجية للنص دعوى علمية تهدف إلى تحييد الذات القارئة وحبس الموضوع أو النص في منطقه الكامن وفي آليات تشكله وتكوينه على أساس من التجريد والتقشف المنهجي الذي يدعي القبض على الحقيقة ويعزز هذا الموقف الطرائق البنيوية في تحليل السرد والقص الشعبي والأسطورة التي تختزل في شبكة من العلاقات المتشابكة والمنظمة، حيث يقوم فيها الإحصاء بحصر الوحدات السردية المتشابهة التي تشكل المنطق الكامن وراء عملية السرد، فتغدوا الوحدات من قبيل: - الوعد والخيانة التعويق والمساعدة... التي تدخل في وحدات أكبر كالحاملون والعاملون والمساعدون - قوالب جاهزة لا يخلوا منها أي عمل سردي، وليس على البنائي سوى استخراج هذه الوحدات والكشف عن منطقها، ومن هنا تغيب أي فاعلية للأحداث والشخصيات والسارد في أي عمل سردي، ويستحيل السرد هنا إلى جثة هامدة لا يبقى منها إلا الهيكل أو صورته، في استراتيجية واضحة تستأصل السرد من كيانه وتفرغه من مضمونه الاجتماعي والاقتصادي والإيديولوجي(10).

وليس هذا النقد الموجه إلى التحليل السردي العلمي ليلغي فاعليته في كشف المعنى وتفسيره ولكن المقصود هو التشوف إلى أبعد من ذلك أي ما وراء هذا المعنى الكامن، ليس في منطوق النص فحسب بل فيما توارى منه واندرس نتيجة كثرة القراءة وطول المعاودة الشكلية التي تحفل بتثبيت المعنى أو تجفيفه "هناك دائما كما يقول ريكور أكثر من طريق واحد لفهم النص، وليس من الصحيح أن كل التفسيرات متساوية. ومنطق التثبت يمكننا من أن تنحرك بين طرفين اثنين نزعة الشك ونزعة التقرير... وقلنا أن ثمة جدلا بين الفهم والشرح يقابل بين الواقعة والمعنى..."(11)، والطريق الثاني الذي يعنيه ريكور هو طريق الفهم والتأويل الذي هو حوار بين القارئ والنص أو هو حوار مع مسكوت النص عبر منطوق وعيان لغته وهذا الحوار يتجاوز الوسيط المنهجي ليفتح النص على ذات القارئ في صورة انكشاف وانصهار يخلخل النص ويزحزحه عن منطوقه، ويأتي التأويل كمحفز لتوالد المعنى في النص السردي الذي يعد أكثر الأجناس الأدبية تعقيدا وأكثرها احتفالا بالدلالة والوجود من خلال

اللغة "ومادامت التأويلية تريد أن تفسر الوجود – في – العالم ومادامت رأت هذا الوجود منكشفا في النصوص السردية، فإنها يجب أن تنكب على هذه النصوص بوصفها تفسيرا للوجود..." (12).

الهوامش

01. يوسف نور عوض: نظرية النقد الأدبي الحديث، القاهرة، دار الأمين، ط01، 1994، ص: 10.
02. جابر عصفور: نظريات معاصرة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990، ص: 209.
03. المرجع نفسه، ص: 216.
04. زكريا إبراهيم: مشكلة البنية أو أضواء على البنيوية، مكتبة مصر، 1990، ص: 08.
05. المرجع نفسه، ص: 09.
06. ينظر: محمد الناصر العجيمي: النقد الأدبي الحديث ومداس النقد الغربية، صفاقس، دار محمد علي الحامي، ط01، 1998، ص: 374.
07. المرجع نفسه: ص/ص: 371-372.
08. "صالح مفقودة" من مواليد 1957م بكيمل ولاية باتنة متحصل على دكتوراه درجة ثالثة بدرجة مشرف جدا مع تهنئة اللجنة المناقشة، صاحب أطروحة دولة حول المرأة الجزائرية، اشتغل بمعهد اللغة العربية وآدابها بجامعة سطيف، وهو حاليا أستاذ التعليم العالي بجامعة بسكرة ، له العديد من المقالات والمداخلات فضلا عن الإصدارات أهمها: نصوص وأسئلة، دراسة في الأدب الجزائري.
09. صالح مفقودة: أبحاث في الرواية العربية، جامعة محمد خيذر بسكرة، منشورات مخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، ص: 78.
10. مصطفى ناصف: نظرية التأويل، جدة، النادي الأدبي الثقافي، مارس 2000، ص: 217.
11. المرجع نفسه، ص: 219.
12. ديفيد وود : الوجود والزمان والسرد ،تر سعيد الغانمي ، الدار البيضاء ، المركز الثقافي العربي ،ط01 ، 1999 ص30.